قيمة الجوار في ذهن الشاعر العربي القديم
(دراسة موضوعية)

المدرس الدكتور
زيد عبد الحسين يوسف العكايشي
الجامعة الإسلامية - كلية التربية
Zaid.iq83@gmail.com

The dominance of 'Neighborhood' value on old Arab poet's mind

Lec. Dr. Zaid abdul-Hussien Yousuf
Islamic university - College of education

الملخّص :

عاش الشاعر العربي القديم في بيئة تحكمها مجموعة من القيم المتوافق عليها مدحا وذما، حتى غدت في بعض الأحايين ذات هيمنة على ذهنه اثناء البناء الموضوعي لنصه الشعري، بحيث لا يستطيع الهروب منها أو الانفكاك من هيمنتها عليه، كونها انصهرت بعقله الواعي أو اللاوعي الجمعي، ومن هذه القيم قيمة الجوار التي ابتدأت قيمة اجتماعية عرفية واجبة المراعاة عند كل عربي، ثم تحولت إلى اداة يستعملها الشاعر العربي في منتجه الأدبي.

من هنا جاءت الرغبة في دراسة قيمة الجوار ذات الهيمنة على ذهن الشاعر العربي، عندما يمدح أو يهجو أو يفتخر، ومعرفة أسبابها ودواعيها، التي أصبحت عند عدد من الشعراء مرتكزاً أساسياً في البناء الموضوعي، فضلا عن تحويل النص الشعري إلى لوحة اخلاقية تحمل في طيتها سمات اجتماعية بطريقة فنية يكتب لها الحياة والسيرورة على ألسن أبناء المجتمع ، بحيث من الصقت به قيمة الجوار أضحى مقدما بين أبناء قومه ومدعاة للفخر له ولأبنائه.

الكلمات المفتاحية : قيمة الجوار – الشاعر العربي – قبل الإسلام – البناء الموضوعي – هيمنة الجوار – الغرض الشعري – العصر الأموي .

Abstract:

The old Arab poet lived in an environment that was controlled by some values and standards. These values controlled the poet's mind even during writing his poems. The Arab poet couldn't get rid of these values since they were fixed in his conscience and subconscious mind. One of these values is neighborhood which started as a social value then it became a poet's tool .

Due to this fact, this research studies neighborhood as a value which controls the Arab poet's mind and its causes. For many Arab poets, Neighborhood became the main idea in constructing their texts . Also, such a value turned the poetic text to a work of morals.

Key words : the value of neighborhood , the Arab poet , before Islam , the objective structure , the hegemony of the neighborhood , the poetic purpose , the Umayyad era.

المقدمـــة

اتسم العرب بفضائل حميدة، تحلّو بها وتمثلوا حتى عدّت عنوانا مميزا لحياتهم اليومية، ويلام من تركها وتخلى عنها، بحيث أصبح الرجل العربي يتنافس في نيلها و يتفنن في سبيل اقتنائها، حتى أصبح أربابها قبلة المادحين وعنوانا يسمو بها على الآخرين، وتبرُّم من جفاها وغادرها، وتلونت الفضائل عند العرب بأشكال وأنماط ، أحسب أنَّ اغلبها عائدٌ إلى حسن الجوار أو يدور في دائرته أو تفرع منه.

لذا نال حسن الجوار مجتمعياً الاهتمام والعناية بصورة واضحة؛ لاقترابه من حسن الضيافة والقرى وامتزاجه بشجاعة الطبع وسمو النفس، فتحول من طبع اجتماعي سائد إلى محطة يعمد إليها الشعراء في إستلهام قيم مدائحهم، ويتخذونها نبالاً في هجائهم، بحيث لم نجد شاعراً إلا ذكره إما مستقلا وإما ضمناً في شعره، وهذا سنلاحظه في دواوينهم الشعرية جليا، والأمر نفسه دعانا إلى تسميته بالهيمنة الحاكمة على ذهن الشاعر أثناء عملية الإنتاج الشعري وأغراضه سواء في المدح أم الهجاء أم الرثاء.

ومن أجل حصر الفائدة عيَّنا مدة زمنية محصورة بالشعر العربي القديم لكي نخلص إلى مدى تأثير المشروع القيمي في تلك الحقبة على ذهن شاعر، وبيان مستواها ومعرفة مسوغاتها وطغيانها في المدونات القديمة ضمن الإفرازات البيئية والثقافية المنتشرة وقتئذٍ، فقد وجدنا من البرِّ بهذه القيمة، ومن تمثل بها أن نعقد بحثا محددا بمدة زمنية، تبدأ من العصر الجاهلي وصولا إلى نهاية العصر الأموي، وكل ذلك مقيد بما توفره لنا المصادر من نماذج شعرية تظهر جوانب الجوار المتعددة وإبراز هيمنته المعنوية والاجتماعية، ولابدَّ من الإشارة إلى عمل علمي وجهد مركز يتشابه مع بحثنا في اكثر المفاصل إلا أنَّه يتخلف معنا في الرؤية والطرح، هو الجهد الذي قدمه الباحث الدكتور مرزوق بن صنيتان بن تنباك بعنوان ((الجوار في الشعر العربي حتى العصر الأموي)) المنشور في حوليات كلية الآداب الكويتية، إلا أنَّنا اخترنا طريقا آخر يركز على إظهار القوة الضاغطة التي دعت الشاعر لحمل قيمة الجوار في أدبه، تاركين التعقب والتنقيب والعرض التاريخي؛ كون الباحث ركز على العرض التاريخي وجمع المادة الشعرية من أُمات المصادر، وأثبت من خلالها حضور قيمة الجوار في الأغراض الشعرية، وأجاد

الباحث في عرض مفصل وتام، وافادنا بمعلومات جمة ولاسيما في تعيين الأبيات الشعرية.

و قد جاء البحث بمبحثين يسبقهما مقدمة وتمهيد ويعقبهما النتائج وقائمة المصادر، واتجه التمهيد إلى اظهار المعاني اللغوية والاصطلاحية لمعنى الجوار بوصفه مفتاحاً لقراءة البحث، فضلا عن التعريف بالدوافع الكامنة وراء الاحتفاظ بهذه القيمة التي غدت مهيمنة في ذهن الشاعر تتوافد عليه كلما استدعاها مدحا ورثاء، أما المبحث الأول فتعرض لقيمة الجوار بوصفها سبيلا للمدح والفخر وللهجاء، وأما المبحث الثاني فضمَّ دراسة أنماط الجوار وأشكاله المتداولة في المجتمع العربي، ثم الجئني البحث لذكر حقوق المستجير على المستجار الذي توافقت عليه العقلية العربية آنذاك .

ولا أدعي لنفسي أنَّي أحطت بهذا الجانب المهم في حياة العرب أو بيان قوته على الأدباء، وإنَّما جهدت ساعيا لأنال شرف الإحاطة((و ليس كل ما يطلبه المرء يدركه))، وما توفيقي إلا بالله لإبراز هذه الهيمنة على المنتج الأدبي وقائله القديم، التي اخذت حيزا كبيرا من حياتهم اليومية، وأخيرا أحمد الله حمدا لما وفقني إليه، إنَّه سميع الدعاء

التمهيد : هيمنة الجوار ودوافعه.

الجوار لغة: ورد في معجم العين مادة جور إذ يقول((الجار مجاورك في المسكن، والذي استجارك في الذمة تجيره وتمنعه، والجوار مصدر من المجاورة و الجوار الاسم والجميع الأجوار))[١]، وبيَّن صاحب لسان العرب معنى الجوار بقوله: ((الجوار والمجاورة والجار الذي يجاورك وجاور الرجل مجاورة))[٢] ثم فصَّل أنواع الجوار بقوله: ((الجار الذي يجاورك بيت بيت والجار النفيح والغريب والجار الشريك في العقار والجار المقاسم والجار الحليف والجار الناصر والجار الشريك في التجارة ...))[٣] حتى أورد اكثر من عشرة معان للجوار، ويلفظ الجُوار والجِوار بالضم و الكسر، والثانية افصح[٤] .

أما اصطلاحاً فلم نجد ابتعاداً عن المعنى اللغوي، فـ((جار الجار من يقرب مسكنه منك.....وقد تصور من الجار معنى القرب فقيل لمن يقرب من غيره جاره وجاوره))[٥]، وقد تكررت اللفظة في القران الكريم باستعمالات عدة، منها اعطاء المأمن لمن لاذ بك نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ ،[٦] ويتصور من معنى الجوار القرب فقيل: لمن يقرب من غيره جاره و جاوره[٧] . فيتوحد المعنيان لإيراد صيغة مكانية في المسكن، واخرى معنوية نحو الناصر والحليف، ويحدده السياق الذي تورد فيه .

وقد بلغ الجوار مبلغا مهما في الحياة العربية ، وذا سيرورة واضحة لتوقف حياة الرجل العربي على قضايا تتطلب تكريس معاني الجيرة، فهو يعيش حالة التنقل ونشوب القتال بين أفراد أو تجمعات المجتمع، مما ادى إلى الاهتمام بالملاذ، فالرجل العربي إذا سافر بعيدا فهو يحتاج إلى معيل لمن خلفهم من عيال، أو يتيه في الصحراء أو نفد طعامه فينزل ضيفا وجارا، مما خلق الحاجة إلى مجير من أهوال الصحراء وضروريات المتاع والسفر، وقد يلاقي صعالكة الصحراء فيندب حاميا و مجيرا له، حتى غدا الجوار سمة يذعن لها الجميع، فلا يتوقع أحد منهم إلا ويحتاج لذلك الجار فـ((الجود والكرم واباء الضيم والشرف وحماية الحمى وإجارة المستجير وإغاثة الملهوف ...تشكل بالضرورة أجزاء لازمة من ثقافة عرب الجاهلية، وما تقدمه من أساليب السلوك الثقافي والاجتماعي هو استجابات لا مفر منها)).[٨]

وتطور الأمر وأصبحت الحاجة عاملا شريفاً يرتجى منه التميُّز، وتؤسس عليه ظاهرة اجتماعية محترمة تسمى الجوار التي توافق عليها العقل العربي بتقدمها وجلالة قدرها، فحامي الجار أضحى رجلاً يسمو على غيره كمطعم الطعام، فضلا عن أنَّ البيئة بيئة صراع بين قوي و ضعيف، فاحتاج الهارب إلى ملجا منجي، والبيئة نفسها لم يشرع فيها قانون يستند إلى قوة عظمى إذ((لم يكن رادع يردع أو توازن يمنع فصار الجوار عندهم هو الرادع الذي يحد من غطرسة القوى ويقلل من عداوة البطش))[٩]، وأحسب أن الجوار أضحى في المدة التي سبقت ظهور الإسلام قوة مُتواضعا على احترامها، وكأنها بيت لحماية الجميع ((إذا جاورهم جار عمدوا إلى ماله فأحصوه، ودفعوه إلى ثقة، فإنْ مات له شاة أو بعير أخلفوه عليه حتى ينصرف موفوراً، فإن مات قبل أن يصير إلى وطنه ودوهُ، وإن قتل طلبوا بدمه))[١٠].

لذلك زخرت أيام العرب بذكر المجير،[١١] واحتل أصحابها مكانة عالية بين اقوامهم حتى نزل رعاية الجار مبدأً يتنافس عليه؛ إذ لا فخر يعلو عليه بوصفه قيمة أخلاقية

واجتماعية لا يمكن الحياد عنها، وربما اقتران هذه الصفة بالرئيس أو صاحب الشأن فضلا عن باقي أبناء المجتمع جعلها مداراً للتنافس ونشوء قدرتها الحاكمة، فما يصدر من سيد شريف يكون الأجدر أن يقتبس منه، نحو افتخار عنترة بصفات هي اقرب إلى سيد القبيلة وينسبها لنفسه، إذ يقول:(١٢)

(بحر الكامل)

فـإذا شـربتُ فـإني مُسـتهلكٌ مـالي و عرضـي وافـرٌ لا يُكلـم
وإذا صحوت فما أُقصّر عن ندىً و كما علمت شمائلي و تكرُّمي
يخبرك من شهد الوقيعة أنَّني أغشى الوغى و أعفُّ عند المغنم

كل هذه الصفات اكثر ما تلصق بالرئيس أو المتقدم بالقبيلة، إلا أنَّ الشاعر نسبها إلى نفسه بغية التميز، وايرادها هنا لاضهار امر اجتماعي ينحصر بطالب السمو والرفعة يحاول تقمّص ادوار اصحاب الشأن واهل الحل والعقد، ولعلها ظاهرة اجتماعية متوارثة عند اغلب أبناء البشر.

وتظهر مرة أُخرى عند عبيد الأبرص عندما افتخر بصفة الجار بوصفه قانوناً يدعو إلى المحافظة عليه، وهذا الأمر يشارك به علية القوم، فيقول:(١٣)

(بحر الكامل)

نحمـي حقيقتنـا و نمنـع جارنـا و نلـف بـين اراحـل الإيتـام

فيرى الشاعر أنَّ الخصلة التي يجب اللجوء إليها هي حماية الجار، فكما بذل الطعام وخوض المعارك تورث العلياء، كذلك أضحت حماية الجار نقطة مهمة للفت النظر تجاه صاحبها، من خلال اندماج بين صفات رئيس القبيلة وحال الرجل الاعتيادي الذي قام بدور الإجارة، ومن هنا اقترب معنى سدُّ الحاجة من الجيرة إلى نوع آخر يتأطر به الرجل ليصل إلى مقام المقدم في القبيلة.

ولعلَّ أمراً آخر دعا إلى ذيوع الإجارة: هو عدم وجود الفارق بين المجير والمستجار اجتماعيا، حتى أصبحت الإجارة ضربا مألوفا لا يأنف منه العربي، فلا يتخيل أنَّ المستجير أقلُّ شاناً، مما خلق ضربا طبيعيا في دخول ملك جوار شخص اعتيادي(١٤) ، فإن

دلً على شيء فيدل على تأثير هذه القيمة الحاكمة وحضورها الفاعل، بحيث نزل أبناء المجتمع العربي عليها، وتوافقوا على ترسيخها.

أما المجتمع الإسلامي فقد أكد القران الكريم على الجوار، وجعله من مكارم الأخلاق، ولاسيما عندما نسب الله فعل الإجارة إلى ذاته المقدسة، نحو قوله تعالى:((وَ إني جَارٌ لَّكمْ)) (١٥) ثم جعل الجوار من مختصاته، إذ قال تعالى:((وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ))،(١٦) وهذه التنبيهات على قيمة الجوار تنبئ بعلوها اعتمادا على من نسبها الى نفسه وهو رب العالمين ، فأصبح الله مجيرا لعباده، وهذا معنى جديد للإجارة يؤكد اهميته وتأثيره عندما ارتبط بالسماء.

وسارت السنة الشريفة باتجاه ترسيخ الإجارة بالبيئة الإسلامية الجديدة، حال الخصال الأخرى من مكارم الأخلاق التي دأب عليها العرب قبل الإسلام، إذ اشتهر حديث الرسول (ص) الموصي بالجيرة ((ما زال جبرئيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنَّه سيورثه))،[١٧] وهذا الخلق تأكيدا لما كان معمولا به في الجاهلية في اقتسام الطعام بين المتجاورين ، نحو قول حاتم الطائي:[١٨]

(بحر الطويل)

إذا كـــان لـــي شـــيئآن يـــا أُم مالـــكِ فـــانَّ لجـــاري منهمـــا مـــا تخيَّـــرا

فالإسلام أكد على الأخلاق المحمودة، وحث المسلمين عليها، كان في مقدمتها الجيرة، مما ترك أثراً بالغاً بسيرورة قيمة الجار في العصر الإسلامي وما تلاه .

المبحث الأول

حضور الجوار في بنية الغرض الشعري

أكدت الدراسات النقدية القديمة على موقع المدح والهجاء في المدونات الشعرية،[١٩]وعدوهما الجذران لباقي الأغراض الشعرية ((الشعر كله نوعان: مدح وهجاء))،[٢٠] ومنهما تصنف الموضوعات الشعرية أيضا، لذا وجدنا الاقتصار عليهما يوفي بمهمة بيان هيمنة قيمة الجوار على عقل الشاعر المادح أو الهاجي وإحساسه.

- حضور الجوار في المدح

المدح هو ذكر الخصال الحسنة – سواء الجسمانية او المعنوية- عند الشخص أو الجماعة، والتأكيد على صفات خاصة كالشجاعة والكرم، وتخليد المآثر[٢١]، وخيرها ما كانت صفات نفسية يتحلى بها المرء فـ((إن المدح بالفضائل النفسية اشرف وأصح))، [٢٢]إذ عدت المحاسن الجسمية أقل شاناً.

فالمديح يتكئ على ذكر الخصال والصفات التي تنبعث في نفس الشاعر تجاه الممدوح التي منبعها الرغبة؛[٢٣] بوصفها نابعة من الصدق الواقعي عندما يشاهدها الشاعر ويكبر شأنها، فضلا عن كونها تزين الممدوح؛ لأنَّ((تلك الخصال الحميدة حالات تؤكدها وتضاعف حسنها وتزيد في جلالة المتمسك بها))[٢٤] ما دعا إلى تعليقها في ذاكرة المتلقي لتمثلها برجال واقعيين لكي تعمل على رفعتهم ، ولاريب في أنَّ حسن الجوار إحدى الخصال التي مدت إليها ألسن الشعراء تكريما وتحفيزا للآخرين، فقال الأعشى:[٢٥]

(بحر البسيط)

لله در بـــني الحجـــاج إذ نـــدبوا لا يشـتكي فعلـهم ضـيف ولا جـارُ
إن يكسبوا يطعموا من فضل كسبهم وأوفيـــاء بعقـــد الجـــار أحـــرارُ

فهو يتوجه إلى قوم يمدحهم على خصلة الإجارة و الضيافة، والمعول على هذه المنقبة أنَّها من خالص مالهم الحلال، أي تاركين السرقة ومحورها، بل جادوا من خير ما بذلت أيديهم فانمازت الإجارة بالمال الحلال عن السلب والنهب، وهنا نلاحظ مقيدات لقيمة الإجارة المنحصر بالمال الحلال دون سواه، ونرى مدحاً آخر يقدمه الشاعر لنفسه، نحو قول مسكين الدارمي:[٢٦]

(بحر الكامل)

نـــاري ونـــارُ الجـــارِ واحِـــدَةٌ وإلَيْـــه قَبْلِـــى تُنْـــزَلُ القِـــدْرُ

إنَّ عملية تقديم الطعام للجار وعدم تمييز قدره من قدر جاره، والإصرار على وصول الطعام إلى جاره قبل أن يصل إليه كان سبباً للمدح والثناء، وهنا تبرز اهمية الجار في ذهن القائل كقوة حاكمة من خلال استعمال العملية التصويرية.

ويمتد تأثير الإجارة لتبلغ مستوى مدح المجموعة الكاملة، فأضحت تمتد الى الفئة البشرية بعدما تجاوزت الأفراد، فيقول الأخطل:[٢٧] (بحر الطويل)

لعمـــرك مـــا يبيـــت الجـــار فينـــا علـــى وجـــل يحـــاذر أن يغـــالا

يجمع الشاعر في هذا البيت بين الفخر والمدح، فالعجز يمدح فيه قبيلته، بأنَّ المستجار له حق على القبيلة لا ينتهك، وهذا الإقرار يضمن للنازل حقوقا لازمة على المستجير، بوصفه قانونا قاطعا لا يحق نقضه، وهذا ما شكل تطورا مهما في قيمة الإجارة، حتى بلغت هيمنتها حالاً ثابتاً على المستوى الاجتماعي، الذي تولَّد عنه السيطرة على انتاج الشاعر المصوِّر لقبيلته ومجتمعه.

وشمل التطور لهذه القيمة عندما لم يبقَ حبيساً لمدح الأفراد وزعماء القبائل، بل امتدَّ إلى مدح الملوك بحسن جوارهم من خلال اعطاء الأمان ونحوه، كقول أبي طالب:(٢٨)

فبـــدلهم رب العبـــاد بـــدارهم جـــوار كـــريم ســـيد ذي فواضـــل
جـوار النجاشـي الـذي لـيس مثلـه مليـك مجـير للضـعاف الأرامـل

فوسع الشاعر من دائرة الإجارة لتبلغ الملوك من خارج الجزيرة العربية؛ لأنَّها سمة شائعة في المدح تليق بالملوك، وبها ندرك قوة انتشار الإجارة بحيث ناسبت مقام الملك النجاشي، ويدل ما تقدم على توغل الإجارة وحضورها المؤثر في العقل المجتمعي في شبه الجزيرة العربية.

وقد تتحول الإجارة لتشمل الفخر بالنفس أو بالآخرين؛ لارتباط الفخر والمدح بقيمة الجوار، فقد ((كانت العرب تمتدح بالذّبِّ عنّ الجار فيقولون فلانٌ منيعُ الجار حامي الذمار، نعم حتى كان فيهم من يحمي الجراد إذا نزل في جواره فسُمّي مجير))؛(٢٩) لذا اتخذ الشعراء من الجوار منهجا للفخر الذي يميز صاحبه ويسبغ عليه صفة التفرد وعلو الشأن، وهذه سمة يحاول أن ينالها كل انسان، ولاسيما الشاعر، من ذلك قول الأحوص:(٣٠) (بحر البسيط)

ذَاكَ وَإِنِّي عَلَى **جَارِي لَذُو** حَدَبٍ أحْنُو عَلَيْهِ بِمَا يُحْنَى عَلَى الجار الجَارِ

فالشاعر يفتخر بما يقدمه من تواضع لجاره في أثناء التعامل الاجتماعي معه، وتبدو لي علة الفخر أنَّ العربي يأنف من الانحناء – سواء الحقيقي أم المجازي- للآخر، أو أن يصف نفسه مرتبة تالية لشخص آخر، بينما إذا كان الآخر هو الجار، فيصبح الأمر مختلفا تماما، فضلا عن أنَّ الشاعر يشير إلى التعامل الخاص الذي يناله الجار في البيئة العربية،

فتطبيقها مدعاة للفخر، والأمر عينه يؤكد على وجود سياقات واعتبارات متبعة للجوار، منها تلبية متطلبات الجار، نحو قول هدبة بن الخشرم[٣١]:

(بحر الطويل)

ولا نخـــذلُ المـــولى و لا نرفـــعُ العصـــا عليـــه و لا نزجـــي إلى الجـــار عقربـــا

فينفي الشاعر عن نفسه وقومه خذلان الجار أو ما يشينه؛ لأنَّه قيمة عليا وذات جذور مغروسة في النفوس، حتى وصل الأمر إلى عدم المبالاة عما يصدر من إساءة ممن نزل بالجوار، نحو قول هدبة بن الخشرم:[٣٢]

(بحر الطويل)

يبيـــتُ عـــن الجـــيرانِ معـــزبُ جهلـــهِ مـــريح حواشـــي الحلـــم للخـــير واصـــفُ

فالجار النازل في فناء المستجير يتحتَّم عليه تمثل العادات والتقاليد والأعراف التي يؤمن بها صاحب الإجارة، ولكن الشاعر يشير إلى مبدأ راقٍ تجاه المستجير في غفران كل زلاته الصادرة منه في أيام الإجارة ، ومقابلة ذلك بالتلطف وإيجاد الإعذار له، وقد يصل الحال إلى اراقة الدماء من أجل عدم التخلي عن الجار ؛ لأنَّه يمثل معتقد لازم تهون أمامه كل التضحيات، نحو مخاطبة حاجب بن زرارة الحارث بن ظالم إذ يقول[٣٣]

(بحر الطويل)

لعمـر أبيـك الخـير يـا حـار إنـني لأمنـع جـاراً مـن كليـب بـن وائـل
وقـد علـم الحـي المعـدي أننـا علـى ذاك كنـا في الخطـوب الأوائـل
وأنـا إذا مـا خـاف جـار ظلامـةً لبســـنا لـــه ثـــوبي وفـــاءٍ ونائـــل

لم يجر الشاعر قوله مجرى الفخر وحسب، وإنما انزعج من الحارث ولطلبه التنحي عن موروث عربي سائد وهو الإجارة، فأراد أن يطلق دعوة لكل السامعين يخبرهم بمعيارية الجار ومكانته ولو كلفت إراقة دمه، وفي الوقت نفسه ينزه نفسه من عار قد يلحق به لتخليه عن قوة اجتماعية حاكمه وهي الجوار.

وتظل هيمنة الجوار وقيمته تعانق كل عربي تربى على خلق البادية، فقد بلغت إحدى الأسس التي يربي المؤدبون عليها أبناء الخلفاء بوصفها قيمة متجذرة في طباع العرب لا يمكن الحياد عنها ويزدان بها بغية الافتخار بهم، من ذلك وصية عبد الملك بن

مـــروان لمـــؤدب أبنائـــه أن يـــدربهم علـــى قـــول العجـــير الســـلولي:[٣٤] (بحر الوافر)

يَـبِين الجـارُ حِـين يـبِين عنّـي ولم تـأنسْ إلـيّ كـلابُ جـاري
وتظعـنُ جـارتي مـن جَنـب بـيتي ولم تُسْـتَرْ بسـترٍ مـن جِـداري

إنَّ وصية عبد الملك تتوخى خلق تواضعت عليه البيئة العربية، فجاءت لترسيخ روح الجوار العربي في أبنائه؛ لأنَّ بني أُمية حكموا باسم العروبة والروح القبلية، فما دامت البيئة تذعن للجوار؛ لذا أصبح لزاما أن يدرب من يخلفه عليه، فضلا عن ذلك نفهم من القصة أنَّ الخلفاء والملوك أذعنوا لهذه القيمة، ما خلف توجها عاما لدى شعرائهم في الانحياز لقيمة الجوار، بغض النظر عن عمل رجال السلطة بهذا الخلق ام لم يعملوا؛ لانَّ التأديب امر وإدارة دفة الحكم امر آخر، من هنا نلحظ مسوغاً لانثيال الشعراء على معاني الجيرة كان دافعه أصحاب الحكم في الدولة الإسلامية.

ولاقى الجوار في فن النقائض حضوراً متميزاً بالاعتماد على قوته المتوارثة، فيفتخر كل شاعر أمام نظيره بحضوره بأعلى المراتب في تاريخ قومه المتوارث، من ذلك قول الفرزدق:[٣٥] (بحر الطويل)

وجـدتُ القـرى فينـا إذا يـبس الثـرى ومـن هـو يرجـو فضـله المتضِّـيفُ
تـرى جارنـا فينـا يـتحير وإن جنـى فـلا هـو ممّـا يُنطـف الجـارَ ينطـفُ
ويمنـــع مولانـــا وإن كـــان نائيـــاً بنـــا جـــارهُ ممّـــا يخـــافَ ويـــأنفُ

وما دامت فضيلة الجوار عنواناً شريفاً يستحصل منه التفاخر المجتمعي أو الشخصي، ووسيلة في التمييز من الآخرين؛ ادى إلى إعلان الشاعر اكتسابه هذه القيمة بأعلى مستوياتها، حتى وإن اودى به إلى الإسراف بالمبالغة، بحيث يدعي أنَّ من نزل بجواره يبلغ المأمن مع اقترافه الجناية أو الإساءة، وربَّما خلد الشاعر إلى هذا المعنى المتصور من قناعة المجتمع واعترافه بأهمية الجيرة وجمال خصالها؛ لذا عدَّ الإفراط ضرباً من التباهي الإيجابي؛ بوصفه من تيم القبيلة العربية وليدلل على علو كعبها أمام خصومه.

- حضور الجوار في الهجاء.

يعرَّف الهجاء بوصفه الشتم بالشعر وخلاف للمدح ونقيضه[٣٦]، أي ذكر الخصال التي تشين المهجو وتقدح به، ومن أساليب الهجاء القديم، استعمال سلب القيم الحسنة

التي تعارف عليها الوسط العربي وذاع صيتها في أخبارهم وأيامهم وتقاليدهم وتجريد الخصم منها، نحو سلب الكرم والضيافة والشجاعة وغيرها، إذ يسلب الشاعر القيم من مهجوه فيقذع فيه ويعيّره بخلوه منها، وقد أثبتنا فيما تقدم مال للجوار من هيمنة ورهبة اجتماعية وجدت صداها في مخيلة الشاعر، بحيث لم ينفك عنها في مديحه، ونجدها حاضرة أيضا في ذمه وهجائه؛ لذا اتخذ الشاعر منه –الجوار- سبيلاً لرمي سهامه، من ذلك قول امرأة قتل زوجها في جوار الزبرقان بن بدر وهو بجواره فقالت:(٣٧)

(بحر الوفر)

متى تَرِدوا عكاظَ تُوافُقوها ... بأسماعٍ مجادعُها قصارُ

أجيران ابن ميةَ خبروني ... أعين لابن ميةَ أم ضمارُ

تجلل خزيها عوف بن كعبٍ ... فليس لخلفها منه اعتذارُ

فإنكم وما تخفون منها ... كذات الشيب ليس لها خمارُ

فقائلة الأبيات اتجه إلى تأنيب جيران ابن ميَّة وهو الزبرقان بن بدر؛ لأنَّه لم يحامِ عن جاره، ولم يقه من القتل، حتى عُدَّ ذلك خزيٌ وعارٌ عليه، والملاحظ أنَّ هذه المرأة ترسم حال المجتمع المؤنب لزبرقان من خلال عدم تصوير مشهد القتل، ولم تعرفنا هل كان الزبرقان مقصرا في إجارته أم أن الحدث فوق ارادته؟ وأحسبها أرادت القول ضمنا من هذا التكثيف التصويري، لابد على الزبرقان أن يقتل دون جاره ولا يسلمه للقاتل، ونجد نوعاً آخر يستمده من سوء اختيار الجار، نحو قول يزيد بن مفرغ الحميري:(٣٨)

(بحر الطويل)

تركتُ قُرَيْشاً أن أجاوِر فيهمُ ... وجاورتُ عَبْدَ القَيْس أهل المُشَقَّرِ

فأصبح جارِي من خُزَيْمَةَ قائماً ... ولا يمنع الجِيرانَ غَيْرُ المُشَمَّرِ

أُناسٌ أجارونا فكان جِوارُهم ... أعاصِيرَ من قَسْو العِراق المُبَذَّرِ

فكنى عن إجارة المنذر بن الجارود وأمانه، وقرنه بالنقيض من فعل ابن زياد الذي لم يأبه بقيمة العرب الحصينة، واتخذ من الموازنة اسلوبا هجائيا؛ كونه أشدُّ إيقاعاً في

الهجاء؛ باعتبار أنَّ المجتمع العربي قائم على المفاخرة بالشخصية الذاتية، ومن هنا تظهر قيمة الجار في الهجاء إذ لم يتوجه للوالي بذكر الظلم وعدم انصاف الرعية أو ذكر المآخذ على الولاة، وإنما ركن إلى عدم احترامه للجوار والإذعان له.

وقد يستعمل عنوان الجار بلون آخر في الهجاء ولاسيما في النقائض، فعدم ضيافة الجار تخلع على صاحبها العار الأبدي، نحو هجاء جرير للأخطل، إذ قال:(٣٩)
(بحر البسيط)

قــومٌ إذا أكلــوا أخفــوا كلامهــم واستوثـقوا من رتـاج البـاب والـدارِ
لا يقـبسُ الجـارُ مـنهم فضـلَ نـارهم ولا تكـفُّ يـدٌ عـن حرمـةِ الجـــارِ

فجرير يعيِّر الأخطل وقومه عندما أخرجهم من دائرة الجيرة العربية، وهي أشد إيلاما بهم ولاسيما عندما شمل المجموعة كلها، ولم يكتفِ بالهجاء بصورته العامة وإنَّما ذكر الجزئيات، فهم لا يتكلمون حتى لا يسمع أحد كلامهم في اثناء الأكل، ويغلقون الباب من أجل الكتمان والسرية، وأخيراً يفهم السامع أنهم قوم لا يدفعوا سوءاً عن جارهم، هذه التفاصيل أفادت العناية بالهجاء معتمدة على جزئيات الجوار وما رافقها من اجراءات شكلت صورة هجائية مقذعة.

وخلاصة ما تقدم: أنَّ الجوار عُدَّ سمة وقيمة اجتماعية عرفية في المجتمع العربي القديم، ثم تحولت إلى قيمة حاكمة على ذهن ومخيلة مصور البيئة العربية الشاعر العربي القديم، حتى برزت في مدحه وهجائه، وخلق منها سبلاً للوصول إلى مراده؛ لأنَّ العرب قد تواضعوا على هذه المكرمة، فمن تمسك بها أصاب العُلا ومن رغب عنها أشير له بالذم.

المبحث الثاني

مرجعيات قيم للجوار في الشخصية العربية قبل الاسلام

- جذور قيمة الجوار.

عرفنا مما تقدم: أنَّ الجوار وقيمته ظاهرة معروفة في المجتمع العربي، وتنافس كل فرد لينال شرف هذه الخصلة، التي إذا ما اتسم بها أو اتصف نال مرتبة مقدمة؛ لذا لابدَّ من البحث في الجذور التي دعت إلى ثباتها وإنزالها منزلة عليا .

أولا: طبيعة الشخصية العربية.

ألفت البيئة العربية الاحتفاء بشخصيات أبنائها، وعدوه جزءاً من موروثهم الثقافي، ووضعوا معايير العلو والسمو التي تنص على التمسك بمكارم الأخلاق والتخلي عما ينافيها، وربما أسس هذا الاحتفال بالذات كنموذج اجتماعي إلى نوع من المهابة في نفوس الآخرين، فضلا عن أنَّ الافتخار بتفرد أحد أبنائها بخصيصة معينة تضفي السمعة عينها التي نالها الفرد على المجموعة المجتمعية؛ لأنَّ الفرد المتميز يُحيي قومه ويرفع من شأنهم، ويصبحوا في نظر قبائلهم ذوي حظٍ عالٍ، فمن نبغ له شاعر أو فارس احتفلت القبيلة به، ولم تبق دائرة الافتخار منحصرة بالأفراد بل شمل الافتخار بالقبيلة لامتلاكها الشخصية المتميزة، ومن هنا حرص الفرد والمجموعة على مسايرة الفضائل واغتنائها المتوافق عليها مجتمعيا من أجل الوصول إلى مستوى التفرد.

ولَّما كانت الجيرة من الخصال التي اتفق عليها الجميع بحسنها وجلالة قدرها عند أبناء الجزيرة العربية، حتى أصبحت غرضا مهما في اقتنائها، فيوصي عامر بن صعصعة بنيه: ((يا بنيَّ جُودوا ولا تسألوا الناس واعلموا أنَّ الشحيح أعذر من الظالم واطعمُوا الطعام ولا يُستذلنَّ لكم جار))، [٤٠] فالفرد يقطف مكانة سامية في قبيلته، والقبيلة تحصل على الصدارة إذا شائع عنها صيت الإجارة؛ ولذلك نسمع صوت فردٍ انصهر بقالب المجموعة متخذا من الجيرة معنى التفرد والسمو، نحو قول يزيد السكوني مادحاً بني شيبان:[٤١] (بحر البسيط)

ومــن تكــرُّمهم في المحــلِ أنَّــهمُ لا يعلــمُ الجــارُ فــيهم أنَّــه الجــارُ
حتــى يكــونَ عزيــزاً مــن نفوسِــهِم أو أن يــبين جميعــاً هــو مُختــارُ

يقدم الشاعر المدح والثناء الى رجل من بني شيبان، الذي صيَّر الجار الغريب إلى مرتبة أحد افراد العائلة، ليتمتع بكامل حقوق الأبناء، والأمر عينه يفهم منه التمسك بخلق الجيرة التي تمنح صاحبها مقاما رفيعا بين الاقران، وربما حُسن الصيت والسمعة للرجل إحدى الدوافع الذهنية عند الأديب، فإنَّ تمثل صاحب جيرة أُلتصق المدح بالشاعر وكأنَّه شريكه بالعمل.

ويتطرق شاعر آخر إلى معنى الجيرة بطريقة مختلفة، يؤكد فيها حصانة الإنسان واكتمال رشده من خلال معيته للجار، وإن ولَّدت غضب ذوي القربى، نحو قول عباس بن مرداس:(٤٢) (بحر الطويل)

عَلَيْكَ بِجَارِ الْقَوْمِ عَبْدِ بْنِ حَبْتَرِ فَلا تَرْشُدَنْ إلاَّ وجَارُكَ رَاشِدُ

فإِنْ غَضِبَتْ فِيهاَ حَبِيبُ بْنُ حبتر فَخُذْ خُطَّةً تَرْضاكَ فِيهَا الأَباعِدُ

فالشاعر يشير إلى مسألة اقتران الرشد مع رشد الجار، ولكن ما الملازمة بينهما؟ والحقيقة لا توجد أي ملازمة إلا في ذهن الشاعر وباعثها التوافق الاجتماعي على الخصلة المحترمة، ولم يكتف بذلك وإنَّما كان يوصي إذا((يتسخط هؤلاء القوم من دفاعك عن جارك فلا تبال بهم، وخذ في أمره بما يحمدك فيه الأباعد دون الأقارب، فإنك إذا اشتهرت بالوفاء استرجحك الأجانب وتسليم الجار يجلب العار))(٤٣)، وهذا من عجائب الأمور؛ لأننا نسمع صوتا يدعو فيه إلى الانحلال من العقد القبلي مقابل الدفاع عن الجار، فهو يتحدى مجتمعا بُنيت اساسياته على الامتثال للقبيلة.

ثانياً: سيد القبيلة.

امتاز الأفراد بحفظ الجوار وعدوه قيمة لازمة الإتباع، وهذا التسليم جعل علية القوم هم الأولى في الانجرار له، وأصبح لزاماً على سيد القبيلة بوصفه راعياً لها وحافظاً حتى تمثلت ادواره بـ (استقبال وفود القبائل، وعقد الصلح، وعقد المحالفات ونجده المستغيث وحفظ الجوار) (٤٤)، ويشار إلى سيد القبيلة من خلال تنفيذها، وهذه الأدوار من المهام الظاهرة لرئيس القبيلة التي لا ينافسه بها أحد وكأنَّها شعار لسلطانه، والأمر المهم لماذا اختص بها رئيس القبيلة على الرغم من شيوعها للأفراد؟ والظاهر أنَّ التنفيذ بطريقة فردية - كما أوضحناها سابقاً - ولكن شرعيتها تكتسب من رأس الهرم في القبلية، فحماية الجار فردية جماعية، ونجد تفسير ما تقدم بقول قيس بن الحدادية:(٤٥) (بحر المتقارب)

خُزاعــةُ قــومي فــإن أفتخِــر بهــم يَــزْكُ مُعتَصَــري والنَّســبْ

هــم الــرأس والنــاس مِن بعــدهم ذُنــابَى ومــا الــرأس مِثْــلُ الــذَّنَبْ

يُواسَــى لــدى المَحْــلِ مــولاهُمُ وتُكشَــف عنــه غُمــوم الكُــرَبْ

فجـــــارهم آمـــــنٌ دهـــــره بهـــم أن يضـــام وأن يغتصـــبْ

فالفخر القبلي الناتج من التعصب القبلي في أغلب الأحايين، إلا أن الشاعر اورده بطريقة مكثفة، يصلح الى اكثر من مشخص محدد، فلم يذكر الذوات بعينها؛ لأنَّه بسياق المجموعة، ولكن ماذا يحتمل القارئ للأبيات سوى سيد القبيلة بوصفه المقدم فيها، ولاسيما أنَّه نوَّه إلى اسم خزاعة ثم أشار إلى الرأس، ثم حصر المعالي بنصرة النازل في حمى القبيلة التي تأتي بأمر من سيدها، فضلا عن جريانها فيهم كطبع سارٍ.

ولعلنا نلمح قوة الجوار وقيمته من خلال قوة رئيس القبيلة الذي أعدها إحدى المحطات المدحية له، ولو لم تكن ذا شأوٍ لم تندرج تحت المديح لرأس الهرم القبلي، فضلا عن ذلك إن علية القوم توكد على اكتناز خصلة الجوار و ترسيخها؛ بغية اتصاف العشيرة أو القبيلة من خلال اتصاف سيدهم بها، لذا كان حرص سيد القوم على تثبيتها بشخصه وتأكيدها؛ لكي يعم الفخر لباقي الأفراد، ومن هنا نعتقد: أنَّ مدح زهير بن ابي سلمى لهرم بن سنان بوصفه سيد قومه، وحامي الخصال الحميدة، وعنواناً ذات تأثير عالٍ بغرس خصلة الجيرة في بني قومة، نحو قوله:(٤٦)

(بحر البسيط)

أوْ صَـالَحُوا فَلَـهُ أمْـنٌ ومُنْتَـفَذْ وَعَقْدُ أهْـلِ وَفاءٍ غَـيرِ مَخذولِ

فالإعمال الخيرة من اعطاء الأمان، وانقاذ المجير، والوفاء بالعهود، قضايا يحافظ سيد القبيلة على سريانها في بني قومه، لكن الشاعر عيَّن أَمراً مهماً وضعه وكأنَّه قانون ملزم لأبناء قبيلة هرم بن سنان، ومنه ينفذ إلى باقي رؤساء القبائل في تثبيت روح الإجارة في نفوسهم وخلق لأبنائهم.

ثالثا: رب العالمين.

تشعبت صور حامي الجار، واتسعت لذوات متعددة من المخلوقين؛ لاندماجها بالفخر الفردي والجماعي، فما أن أُطلقت يتحول النظر إلى صاحبها بالكمال والإكبار، حتى عدت محطة لالتفات الجميع لتقمصها والاتصاف بها، بل وصلت الى مستوى إلصاق الجوار برب العالمين، بوصفة القوة العظمى المهيمنة على المخلوقين، وما دامت القوة الالهية اتسمت بالجوار، فقد دعت الاخرين الى التنافس في الحصول عليها؛ لإيمان

الإنسان في الخلود إلى قوة يستظل بفيئها، وهذا يدعوه الى التشبه بصفاته، ولعلَّ الاقتران جاء من أجل تأكيد سمة الجوار في نفوس الأفراد، من خلال دمج الإجارة برب العباد، فقد يعطي توثيقا ودليلا قويا للعمل بمبدأ الإجارة، وعدم الحياد عنها.

وقد أسعفتنا النصوص الشعرية الواردة على إيضاح هيمنة الجار من خلال نسبتها لرب العالمين، باستعمالات محددة عندما رأى الشاعر أنَّ العدو قوي لا تقوى عليه يد البشر أو لخفاء العدو وعدم معرفته، فيجعل علام الغيوب جاره لرد الكيد عنه، نحو قول مسكين الدارمي: (٤٧)

(بحر الطويل)

أتتـني هنـاة عـن رجـال كأنهـا خنـافس ليـلٍ لـيس فيهـا عقـاربُ
أحلـوًا علـى عرضـي فأحرمـت وفي الله جـار لا ينـام وطالـبُ

فالعدو القادم في الليل الذي يخافه كل بني البشر، لا يجد الشاعر ملجأ منهم سوى الله الذي يعلم خائنة الأنفس وما تخفي الصدور(٤٨).

رابعا: الأموات.

يعتقد الفرد العربي في عصر ما قبل الإسلام بجلالة قدر الميت وحرمته، ولا يصح للإنسان أن ينتهي ذكره بمجرد وضعه في التراب، بل تبقى مزاياه حية تُهاب وتُمجد، ولاسيما خصلة الجوار التي أضفوا عليها خير الأوصاف، ومن ثمَّ جعلوها تلصق بالرجل، سواء في حياته أم في مماته، ومن هنا حرص الشاعر العربي إثبات المكارم إلى الأموات؛ باعتبارهم ذوات لها وقعها في النفوس، ولعل الأمر راجع إلى العصبية القبلية المتوارثة عند العرب، فهم لا يسمحون باندثار كبار شخصياتهم التي تعلق وجودهم بحضورها، فضلا عما حفظته الذاكرة الفردية أو الجماعية عند العرب لهم؛ لذا حافظوا على بقاء اثارهم أحياء وأمواتا، ويسحب المعنى عينه تسويغا لتصوير الفرزدق الإستجارة بقبر أبيه إعظاماً لحرمته التي لابد ألا تنتهك فقال:(٤٩)

(بحر الطويل)

أتـتني فعـاذت يـا تمـيم بغالـب وبـالحفرة السّـافي عليهـا ترابهـا
وقـد علـم الأقـوام انّـك ماجـدٌ وليثٌ إذا ما الحرب شبّ شهابها

الأبيات تحكي قصة تلك العجوز التي غُلب على أمرها في ولدها، ثم استجارت بقير غالب والد الفرزدق لتأخذ منه حصيات لتعطيها لولده الفرزدق ليكن شفيعها في قضاء حاجتها، ولنا أن نسال هل كانت الاستغاثة هذه المرة الأولى من حيث الفعل؟ أم متجذرة في العقل الجمعي؟ والحقيقة أنَّ ردة فعل الشاعر يعطينا دليلا جازما عن حرمة قبر الميت لدى العربي بحيث أصبح موجبا على الفرزدق أن يقول شعرا ويرسله إلى ابن عمه ويعلمه أنَّهم نازلون بجوارهم، وخلال ذلك نفهم تأصيل مستوى مبدأ الجوار عندهم الذي لم يقتصر على الإحياء فحسب بل وصلت إلى الأموات أيضاً.

خامساً: أثر المنظومة الشعرية.

عرفنا في بداية البحث: إنَّ الجوار كان حاجة ملحة في حياة العربي قبل الإسلام، ثم تطور إلى مستوى القيمة المحترمة، وانشطرت منه قيم أُخرى أطرت الشخصية العربية بملامح خلقية انسانية، وما لبث أن أصبحت له قوانين واجبة الاتباع، يلحق العار بتاركها، ويعلو المتصف بها، ثم جاء الشعر العربي مصوراً لذلك العرف بأجمل الصور، حتى غدا طائر السعد يلوح فوق رأس من قيل فيه بيتين أو ثلاثة من المدح أو الفخر المتخذ من حسن الجوار موضوعا، ولعل اقتناء العرب له فيما بعد أصبح تقليدا اجتماعيا يجبر المرء عليه لينال الفخر من لسان الشاعر وقول الخطيب أو دفع هجائه و((عدت هذه القيم المقياس الوحيد الذي تقوَّم عليه شخصية العربي في الجاهلية، فمن التزم بها أصبح موضع احترام وتقدير ومن خرج عليها عدَّ شاذا ولا مكانة له بين الناس)) [٥٠]، وفي الوقت نفسه كان الشاعر يفتش عن الخصال في الرجل لكي يمدحه سواء صادقا أو متكسبا لكي يرفع من شأن ممدوحه ويقنع السامع بما قال فـ((الشعر يصور أصله ونفسية قائليه بكل مالهم من بطولات وأمجاد وبأس وشدة))،[٥١] ونفهم من هنا: أنَّ الشاعر قد يصبه الفخر والاعتزاز عندما يصور حسن الجوار عند الآخرين؛ بوصفه شريكا معهم، من خلال موافقته عليها، وسعيه على ترسيخها، وحصول الاتفاق في الغاية بين الشاعر وممدوحه ومتلقيه في الاهتمام بحسن الجوار التي تحولت مرجعية ذهنية؛ لأنَّ ((القارئ للشعر يتعاطف مع الشاعر ويشاركه مشاعره حين يتغنى بالمثل العليا، فيكون قد عبَّر عن خواطر وأُمنيات القارئ)) [٥٢]، ويمكن أن نبرهن على ذلك بالصياغات الشعرية الواردة التي عدت حسن الجوار من المسلمات المقطوع بها، نحو التصريح بحظوظ الجار

وحماية المجير في نفسه وماله، بل فك أسره، وحصانته ممن أراد به سوءاً[٥٣]، من ذلك مدح الخنساء لأخيها التي تصرح بأمر مسلَّم به فتقول:[٥٤] (بحر الطويل)

وجـارُك محفـوظٌ منيـع بنجـوةٍ مـن الضَّـيم لا يـؤذي ولا يتـذَّل

فحقوق الجار محفوظة عندهم كما يفعلها هو، واستعملت الجمل الإسمية للدلالة على الثبات والبقاء وعدم التخلف عنها سواء في حياته أو بعد مماته، وكأنَّها تبعث رسالة للقائل ان اخاها باقٍ على العهد العربي في حفظ الجوار، ونلحظ في البيت اشارة إلى مرتكز ذهني قيمي وتقليد شعري يجري مجرى المسلمات، ولا نغالي بالقول أنَّ المدحة أضحت تقليد فني في المدح والفخر والرثاء.

وتقابلنا ابيات شعرية للأعشى يعمد إلى الجوار لكي يبين فضائل ممدوحه، ويعصب الأمر بهذه القيمة كونها سمة متعارفة يطرب لها الممدوح والسامع فضلا عن الشاعر نفسه فقال: [٥٥] (بحر البسيط)

جـارُ ابـن حيّـا لمـن نالتـهُ ذمتـه أوفى وأمنعُ من جارِ ابن عمّارِ

بـالأبلق الفـردِ مـن تيمـاءَ منزلـةُ حصـنٌ حصـينٌ وجـارٌ غـيرُ غـدَّارِ

وربما تأكدت حماية الجار حتى غدت سمة متواضع عليها ويأنف العربي في الخروج عنها، وأصبحت عمد شعري يتكأ عليه الشعراء، ولشدة المرجعية الشعرية في الذكرة العربية يظل الأعشى متمسكا بالجار عندما تحول من المدح إلى الفخر بقومه فقال:[٥٦] (بحر البسيط)

فكـان أوفـاهُمُ عهـداً وأمـنعهُم جـاراً أبـوكَ بعـرفٍ غـيرِ إنكـارِ

فهو يمدح أسلافه ولاسيما أبيه لحمايته للجار، ولو لم تكن المنظومة الشعرية تعارفت وتعاهدت على المنزلة الرفيعة للجار لاستبدل الاعشى بمناط آخر، إذ لم تعوزه القدرة على الاستبدال، وإنَّما نلحظ التوافق عند الشعراء ومدوناتهم على قوة سمة معينة للجار وحمايته، ونجد عند شاعر آخر وصفا للجار يبرز قوة معناه في النفوس، من خلال اتصـافه بالحبـل المـتين لإظهـار عـرى الصـلة بينهمـا فقـال زهـير:[٥٧] (بحر الوافر)

ولسـت بـلاقٍ بالحجـاز مجـاوراً وذا سـفراً إلا لـهُ مـنهمُ حبـلُ

وقال في موضع آخر[٥٨] (بحر البسيط)

هلَـاّ سـألت بَـني الصـيداء كُلَّهـمُ بـأيّ حَبـلِ جـوارٍ كنـتُ أمتَسـكُ

وهذا الحبل دلالة واضحة عن قوة الاتصال بين الطرفين، إذ تصل إلى حد إذابة الفواصل وكأنّهما قطعة واحدة، وهذا الإيغال في الأوصاف ما دفعنا إلى القول: إنَّ الشعر المتكرر بقيمة الجوار أصبح مرجعا للشعراء يتفننون في أوصافه، والصلة نفسها بين الجارين يعدها كثير عزة حق إذ قال[٥٩]

(بحر الطويل)

وصاحبِ قومٍ مُعصمٌ بكَ حقُّهُ وجارُ ابن ذي قُربى وآخرجانبِ

رأيتُكَ والمعـروفُ منـكَ سـجيّةٌ تَعُـمُّ بِخَيْـرِ كُـلَّ جـادٍ وَغَائِـبِ

ومعنى ((جادٍ يقال: فلانٌ يجدو ويجتدى، أي: تعم بالمعروف من هو بحضرتك ومن هو غائب عنك؛ فجعل كثير كما ترى معروفه عموما في الأقارب وفي الأباعد إلى الحاضر والغائب)) [٦٠] وهذه المغالاة في وضع الحق على المجير ربما جاءت نتيجة تفتيق اكثر المعاني عند الشعراء السابقين للشاعر الأموي، فاراد أن يخلق معنى جيد غير مألوف يتفرد به عن المدونات الشعرية، لذا أصبح الشعر العربي مؤثرا في اتجاه الشعراء نحو قيمة الجوار وسبب في توسيع معانيه وابداع اشكال جيدة.

الخاتمة

بعد التقدم بالبحث ومجرياته، وصل الباحث إلى نتائج قد انتهى إليها من خلال النماذج الشعرية والقراءة لها، واظهرها:

١- تعد قيمة الجوار من الفضائل الخلقية التي تواضع عليها المجتمع العربي قبل الإسلام، وربما ابتدأت لحاجة العربي لذلك، إلا أنَّها أضحت فيما بعد خلق لازم لكل عربي، فيُمدح الرجل من خلالها ويرتفع ذكره، وفي المقابل يُذم من تنصل عنها، حتى غدت مبدأ ينافس عليه أبناء ذلك المجتمع.

٢- اكتملت اركان الجوار في البيئة العربية، المجير والمستجير والقانون الحاكم، ولم يأنف كل فرد عربي أن يأخذ أي الدورين في هذه المعادلة الاجتماعية، فترى

الرجل يوماً مجير وآخر مستجير؛ لأنَّ الإجارة والإستجارة وردت عندهم مع كل المقامات الاجتماعية سواء فردا اعتياديا أم سيدا لقبيلة، حتى بلغت نمطا مألوفا على مستوى الحياتي.

٣- امتزج الجوار مع باقي الفضائل الأخلاقية المتعددة في التعامل العربي القديم، ويمكن أن نعده الجذر الأساس الذي تفرعت منه باقي الخصال الحميدة، ولعل حسن الجوار وانماطه بداية لنزول الذهنية العربية على احترام حسن الضيافة التي ولدت حضور لوازمها نحو نار القرى وغيرها، بل حتى بعض معاني الإيثار الذي التزم به المجتمع العربي نلمح له جذورا في حسن الجوار ولاسيما إذا جرَّ الضيف أذى على المجار فيتحمله قربانا لجواره فقد نجد من لا يملك قوة يضحي من أجل جاره.

٤- اختلفت اشكال الجوار من سيد وعبد وملك حتى طال الأموات في إجارة الأحياء من العدو، وإن دل على شيء فيدل على تجذر هذه الخصلة والتواضع عليها،

٥-من خلال الاستقراء لعدد من الشعراء القدامى، لاحظنا عنايتهم بمبدأ الجوار، لم نجد شاعراً إلا وقد ذكر فضيلة الجوار، لكنها لم تات بقصائد مستقلة، وإنَّما مقطوعات شعرية في اغلب الأحايين، أما مستقلة أو ضمن قصائد طويلة وربما يعود الأمر إلى اتخاذها وسائل توصل المدح للمعتنقين وذم المتخلفين، أو إيصال نظرة الشاعر الخاصة بهذه الخلة التي تجلب له مدحا وعلوا.

٦- نلاحظ الإشعار التي اتجهت إلى هذه الخصلة اعتمدت الجانب القصصي والحوار، أو التذكير بالماضي أو التأكيد للمستقبل، مما أدى إلى وضوح المعنى ومباشرته، والابتعاد عن الغرابة، وقرب الالفاظ من معانيها؛ وهذا من ثمار حضور الأفكار وأثرها في الشعر، فالتفكُّر والتأمل يؤثر على الجانب الفني إذما اتجه الاديب صوب إظهار الجانب الموضوعي.

هوامش البحث

(١) كتاب العين / الخليل بن احمد الفراهيدي(ت ١٧٥ ﻫ) /تحـ، مهدي المخزومي – ابراهيم السامرائي / مؤسسة دار الهجرة /ايران / ط٢ ، ١٤٠٩ ﻫ. ١٧٦/٦.

(٢) لسان العرب / محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (ت ٧١١ ﻫ) دار صادر / بيروت – لبنان/ :٤ /١٥٣.

(٣) ظ / م . ن : ١٥٣

(٤) ظ / م . ن : ١٥٣

(٥) مفردات الفاظ القران / الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني / دار القاسم / دمشق – سوريا : ١٠٣/١ .

(٦) سورة التوبة : ٦١

(٧) دلالة المائدة الاجتماعية و الثقافية من خلال الشعر الجاهلي / د . بركة بو شيبة /مجلة المعرفة / ع ، ٥٣٥ لسنة ٢٠٠٨ م / دمشق – سوريا / ٣٦٠ – ٣٦١ .

(٨) ظ / الشعر الجاهلي خصائصه و فنونه / د . يحيى الجبوري / جامعة قار يونس / بنغازي / ط٦ ، ١٩٩٣ م :٣١ .

(٩) الجوار في الشعر العربي حتى العصر الأموي / د . مرزوق بن ضيتان بن ثنباك / حولية كلية الآداب / المجلس العلمي ، جامعة الكويت / ١٩٩٠ م : ٢١ .

(١٠) نقائض جرير والفرزدق / أبو عبيدة (معمر بن المثنى التميمي البصري ت٢٠٩هـ)،/ وضع حواشيه، خليل عمران المنصور/ منشورات محمد علي بيضون/ دار الكتب العلمية/ بيروت ـ لبنان/ ط١، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م:٤٢ .

(١١) ظ / ايام العرب في الجاهلية / محمد احمد جاد المولى بك ، علي محمد التجاوي ، محمد ابو الفضل ابراهيم / مطبعة عيسى البابي / مصر / دار احياء الكتب / د . ط : ٥٢ ،٢٥١

(١٢) ديوان عنترة بن شداد / تقديم و شرح و تعليق ، د . محمد محمود / دار الفكر اللبنانية / بيروت – لبنان / ط١ ، ١٩٩٦ م : ١١٥ .

(١٣) ديوان عبيد بن الأبرص / اشرف، احمد عدوة / دار الكتاب العربي / بيروت – لبنان / ط١ ، ١٤١٤ ﻫ – ١٩٩٤م : ٢١٢ .

(١٤) قصة الكناني / ظ / الجوار في الشعر العرب حتى العصر الأموي : ٤٤ .

(١٥) الإنفال : ٤٨ .

(١٦) الأحقاف : ٣١ .

(١٧) وسائل الشيعة / محمد بن الحسن الحر العاملي (١١٠٤ هـ) / تح ، مؤسسة أهل البيت (ع) / ٢ :٣٤ .

(١٨) ديوان حاتم الطائي/ تحـ، فوزي عطوي / الشركة اللبنانية للكتاب / بيروت – لبنان / ١٩٦٩ م : ١٩٤ . الأغاني:٣٤٩/١١.

(١٩) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر/ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري/ تحـ، علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم /المكتبة العصرية /بيروت – لبنان/١٤٠٦هـ-١٩٨٦م:٤١/١

(٢٠)العمدة في محاسن الشعر و آدابه / ابن رشيق القيرواني / (٤٥٦ هـ) / تحـ ، محمد الدين عبد الحميد / دار الجبل / سوريا / ط ٥ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م :٣٧/١

(٢١) ظ / م. ن: ٢٢/١ .

(٢٢)م.ن:١/ ١٥٥

(٢٣) ظ/م. ن: ٣٧/١

(٢٤)عيار الشعر/ أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي/تحـ، عبد العزيز بن ناصر المانع / مكتبة الخانجي/ مصر - القاهرة:٥

(٢٥) ديوان الأعشى / شرح و تعليق، محمد محمد حسين / مكتبة الآداب – /المطبعة النموذجية / (د.ت): ٢٣٥

(٢٦) ديوان مسكين الدارمي / تحـ ، خليل ابراهيم العطية ، عبد الله الجبوري / بغداد ، ١٩٦٢ م : ٤٥ .

(٢٧)ديوان الأخطل:١/ ٢٨٢.

(٢٨)ديوان أبي طالب بن عبد المطلب/ صنعة، ابي هفان المهزمي البصري(ت٢٥٧هـ)، صنعة علي بن حمزة البصري التميمي(ت ٣٧٥هـ)/ تحـ، الشيخ محمد حسن ال ياسين/ دار مكتبة الهلال/ ط١، ٢٠٠٠م: ٢٥٨.

(٢٩)العقد الفريد/ احمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي/ دار إحياء التراث العربي / بيروت ـ لبنان/ ط ٣، /١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م:١٢٢/١.

(٣٠) شعر الاحوص الانصاري/ صححه وحققه، عادل سليمان جمال/ قدم له، د. شوقي ضيف/ مكتبة الخانجي/ مصر – القاهرة/ ط٢، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م: ١٦٨.

(٣١) منتهى الطلب من أشعار العرب/ جمع، محمد بن مبارك بن محمد بن ميمون/تحـ، د. محمد نبيل الطريفي/بيروت – لبنان/ط١، ١٩٩٩م:٢٠٣/٨.

(٣٢) م. ن: ٣٧٦/١

(٣٣)الأغاني:٢١١/٣.

(٣٤) الأغاني:١٣٨/٣.

(٣٥) ديوان الفرزدق/ شرحه وضبطه علي فاعور/ دار الكتب العلمية/ بيروت- لبنان/ ط١، ١٩٨٧م: ٦٣٢.

(٣٦) ظ: لسان العرب مادة (هجو): ٣٥٣/١٥.

(٣٧) ديوان الحماسة / أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (-٢٣١هـ) / رواية ، أبو منصور الجواليقي (-٥٤٠هـ) ، تحـ، د. عبد المنعم أحمد صالح / مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٧ م .

: ١١٥٤/٣.

(٣٨) الأغاني :١٨ / ٢٧٤.

(٣٩) الكامل في اللغة والأدب / ابو العباس محمد بن يزيد المبرد النحوي (ت٢٨٥هت) تحـ، يحيى مراد/ مؤسسة المختار/ ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م: ٢٣٨/١.

(٤٠) مجمع الأمثال/ ابو الفضل احمد بن محمد الميداني/ تحـ، محمد ابو الفضل ابراهيم/ دار الجيل/ بيروت- لبنان، د. ط: ١٦٣.

(٤١) ديوان الحماسة: ١٦٨/١.

(٤٢) م.ن:١٦٨/١

(٤٣) ديوان الحماسة:١٦٨/١

(٤٤) قضايا الشعر الجاهلي/ د.فتحي ابراهيم خضر/ جامعة النجاح الوطنية/ ط١، د.ت: ٣٢.

(٤٥) الأغاني:٦٥/٤.

(٤٦) الأغاني: ٦٥/٤.

(٤٧) ديوان مسكين الدارمي: ٢٥.

(٤٨) ظ/ الجوار في الشعر العربي حتى العصر الأموي: ٢٩.
(٤٩) ظ/ الكامل في اللغة والأدب: ١٣١/١.
(٥٠) القيم الخلقية والاجتماعية في الشعر العربي قبل الاسلام من خلال تقويم المدح فني المدح والهجاء/أ.د. عبد الحسين حداد/ دار ضفاف/ط١، ٢٠١٧م:١٠٩.
(٥١) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه:٨٣.
(٥٢) م.ن:٨٣.
(٥٣) ظ/ الانتماء في الشعر الجاهلي/ فاروق احمد سليم/ منشورات اتحاد كتاب العرب/ د.ط، ١٩٩٨م: ٣٨٠.
(٥٤) ديوان الخنساء/ منشورات مكتبة الفرزدق/ مطبعة الديواني/ بغداد، ط٥، د.ت، ١١٣.
(٥٥) ديوان الاعشى ٧١/١.
(٥٦) م. ن: ٧١/١.
(٥٧) ديوان زهير بن ابي سلمى/ صنعه الأعلم الشنتمري/ تحـ، فخر الدين قباوة/ دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م:٣٢.
(٥٨) م.ن: ١٧٩
(٥٩) ديوان كثير عزة/شرح قدري مايو/ دار الجيل، بيروت- لبنان/ ط١، ١٩٩٥م:٢٢.
(٦٠) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري / الآمدي (أبي القاسم الحسن بن بشر ت٣٧٠هـ)، تحـ/ السيد أحمد صقر/ دار المعارف ـ مصر/ د.ط، ١٩٦٥م:٤٣.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتدىء به القران الكريم
١. الأغاني/ أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي الأصفهاني (ت٣٥٦هـ) / مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر/بيروت ، لبنان/ د . ت.
٢. الانتماء في الشعر الجاهلي/ فاروق احمد سليم/ منشورات اتحاد كتاب العرب/ د.ط، ١٩٩٨م.
٣. أيام العرب في الجاهلية / محمد احمد جاد المولى بك ، علي محمد التجاوي ، محمد ابو الفضل ابراهيم / مطبعة عيسى البابي / مصر / دار احياء الكتب / د . ط .

٤. الجوار في الشعر العربي حتى العصر الأموي / د . مرزوق بن صنيتان بن تنباك / حولية كلية الآداب / المجلس العلمي ، جامعة الكويت / ١٩٩٠ م.
٥. دلالة المائدة الاجتماعية و الثقافية من خلال الشعر الجاهلي / د . بركة بو شيبة /مجلة المعرفة / ع ، ٥٣٥ لسنة ٢٠٠٨ م / دمشق – سوريا.
٦. ديوان أبي طالب بن عبد المطلب/ صنعة، ابي هفان المهزمي البصري(ت٢٥٧هـ)، صنعة علي بن حمزة البصري التميمي(ت ٣٧٥هـ)/ تحـ، الشيخ محمد حسن ال ياسين/ دار مكتبة الهلال/ ط١، ٢٠٠٠م.
٧. ديوان الأعشى / شرح و تعليق، محمد محمد حسين / مكتبة الآداب – /المطبعة النموذجية / (د.ت).
٨. ديوان حاتم الطائي/ تحـ، فوزي عطوي / الشركة اللبنانية للكتاب / بيروت – لبنان / ١٩٦٩ م.
٩. ديوان الحماسة ، أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (-٢٣١هـ) ، رواية : أبو منصور الجواليقي (-٥٤٠هـ) ، تحقيق : د. عبد المنعم أحمد صالح ، مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٧ م .
١٠. ديوان الخنساء منشورات مكتبة الفرزدق، مطبعة الديواني، بغداد، ط٥، د.ت.
١١. ديوان زهير بن ابي سلمى/ صنعه الأعلم الشنتمري/ تحـ، فخر الدين قباوة/ دار الكتب العلمية/١٩٩٢م.
١٢. ديوان الفرزدق ـ شرحه وضبطه وقدم له: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٧٨م.
١٣. ديوان كثير عزة/شرح قدري مايو/ دار الجيل، بيروت- لبنان/ ط١، ١٩٩٥م.
١٤. ديوان عبيد بن الأبرص / اشرف احمد عدوة / دار الكتاب العربي / بيروت – لبنان / ط١ ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م .
١٥. ديوان عنترة بن شداد / تقديم و شرح و تعليق ، د . محمد محمود / دار الفكر اللبنانية / بيروت – لبنان / ط١ ، ١٩٩٦ م.
١٦. ديوان مسكين الدارمي /تحـ، خليل ابراهيم العطية، عبد الله الجبوري / بغداد، ١٩٦٢م.

١٧. شعر الأحوص الانصاري/ صححه وحققه، عادل سليمان جمال/ قدم له، د. شوقي ضيف/ مكتبة الخانجي/ مصر – القاهرة/ ط٢، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
١٨. شعر الأخطل (أبي مالك غياث بن غوث التغلبي)، صنعة السكري، رواية عن أبي جعفر محمد بن حبيب ـ تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديد ـ بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
١٩. الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه/د. يحيى الجبوري/منشورات قاريونس/ليبيا ـ بنغازي/ط٦، ١٩٩٣م.
٢٠. العقد الفريد/ احمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي/ دار إحياء التراث العربي / بيروت ـ لبنان/ ط ،٣ /١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٢١. العمدة في محاسن الشعر و آدابه / ابن رشيق القيرواني / (٤٥٦ هـ) / تحـ ، محمد الدين عبد الحميد / دار الجبل / سوريا / ط ٥ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
٢٢. عيار الشعرـ العلوي (محمد بن أحمد بن طباطبا ت٣٢٢هـ)، تحقيق وتعليق: د. طه الحاجري ود. محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة، ١٩٥٦م.
٢٣. قضايا الشعر الجاهلي/ د. فتحي ابراهيم خضر/ جامعة النجاح الوطنية/ ط١، د.ت.
٢٤. القيم الخلقية والاجتماعية في الشعر العربي قبل الاسلام من خلال تقويم المدح فني المدح والهجاء/أ. د. عبد الحسين حداد/ دار ضفاف/ط١، ٢٠١٧م.
٢٥. الكامل في اللغة والأدب/ ابو العباس محمد بن يزيد المبرد النحوي (ت٢٨٥هت) تحـ، يحيى مراد/ مؤسسة المختار/ ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
٢٦. كتاب الصناعتين الكتابة والشعر/ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري/ تحـ،علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم /المكتبة العصرية /بيروت – لبنان/١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
٢٧. لسان العرب / محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (ت ٧١١ هـ) دار صادر / بيروت – لبنان.
٢٨. مجمع الأمثال/ ابو الفضل احمد بن محمد الميداني/ تحـ، محمد ابو الفضل ابراهيم/ دار الجيل/ بيروت- لبنان، د. ط.

٢٩. منتهى الطلب من أشعار العرب/ جمع، محمد بن مبارك بن محمد بن ميمون/تحـ، د. محمد نبيل الطريفي/ بيروت – لبنان/ط١، ١٩٩٩م.
٣٠. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ـ الآمدي (أبي القاسم الحسن بن بشر ت٣٧٠هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف ـ مصر، ١٩٦٥م.
٣١. نقائض جرير والفرزدق/ أبو عبيدة (معمر بن المثنى التميمي البصري ت٢٠٩هـ)، وضع حواشيه: خليل عمران المنصور/ منشورات محمد علي بيضون/ دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م.